ابن خلـدون
ريادة عربية أصيلة في التخطيط المديني والاقليمي

الدكتور خالص الاشعب
قسم الجغرافية
كلية الآداب ـ جامعة بغـداد

« تراثنا حي يعيش الزمن والمكان وسيعيشهما اجيالا لاحقات » مقولة نقولها في خضم الحديث عن التراث لنبين لمن تغافل عن حقيقة عاملة اننا ابناء امة اضافت لحضارة الانسان ابتداء من وضع هذه الحضارة وانتهاء باكمال صروحها .

لقـد كان التخطيط المديني والاقليمي City and Regional Planning وهمـا جنـاحان للتخطيط الطبيعي Physical Planning [1] احـدى المسارح التي لعب فيها العرب وباصالة دورا رياديا استفاد منه الغرب قبل ان نستفيد نحن ـ المتغافلين او المتجاهلين للاصيل من تراثنا . وابن خلـدون ومدرسته هو موضوع دراستنا ومناقشتها الان لاسباب عدة اورد منها :

أولا : انه لابد لكل حقل من حقول المعرفة ـ نظريا وعمليا ـ من مرحلة بداية وتأسيس ، وبالنسبة لتخطيط المدن واقاليمها وعلاج المشاكل البيئية في الوطن العربي قصة بدأت بدء العرب كقومية وحضارة قوامها الاصالة وسداها الخلود . ويظهر ذلك من تتبعنا لتخطيط الامصار العربيـة

---

١ ـ د/خالص الاشعب ، موروثات مدننا العمارية مشكلة تواجه تخطيط المدن مجلة آفاق عربية ، العدد ٩ سنة ١٩٧٦

الاولى في مختلف بقاع العرب • وما احب ان انبه عنه مبكرا في دراستنا هذه ،هو اننا لسنا بصدد تتبع ذلك ، ان لذلك اكثر من مجال قائم بذاته ، انما نحن بصدد دراسة مرحلة هامة من مراحل التخطيط العمراني التي بلورها العرب خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلادي بواسطة واحد من اعلامهم الخالدين ، هو ابن خلدون التونسي المولد الحضرمي الاصل ١٣٣٢م (٧٣٢هـ) ـ ١٤٠٦م (٨٠٨هـ)[٢] •

نحن بصدد دراسة ماتم انجازه خلال تلك المرحلة في مجال التخطيط الطبيعي ، على انه انجاز تعدت فوائده وطننا العربي الى العالم المتطور الذي سبقنا في الافادة منه •

ثانيا :ان مايحز في النفس هو ان العدد العديد من مستوطناتنا العربية المدينية تنمو وتتطور (سلبا وايجابا) بدون ان تستلهم او يلهمها المسؤلون أي من ابسط مبادىء مقومات تخطيط المدن واقاليمها • سواء نظر الى ذلك من زاوية أنظمة الشوارع ام طرز العمارة او طبيعة الوظائف التي تقدمها هذه المستوطنات (المدن) • مما ينعكس على قناعة مواطنيها وكفايتهم التي لايمكن القول الا بانها بعيدة عن ان تكون كذلك •

ثالثا : ماعدا بعض الحالات ، فقد نمت غالبية مدننا العربية الكبيرة وخاصة العاصمية منها في العقود القلائل الاخيرة بسرعة أقل ما يمكن ان توصف به هو كونها مذهلة • لقد تحولت هذه المدن الى صحارى من الكتل الكونكريتية والبنائية وبطريقة لا تتعدى كونها هوس تجميعي لاحياء تخلو من اغلب مقومات الاحياء العربية الاصيلة التي ارادها ورأى مايجب ان تكون عليه ابن خلدون •

---

٢ ـ دائرة المعارف الاسلامية ، المجلد الاول ، العدد الاول نقلها الى العربية محمد ثابت الفندي، احمد الشنتناوي، ابراهيم زكي خورشيد، عبدالحميد يونس ، ١٩٣٣ ص١٥٣

* الموسوعة العربية ، القاهرة ١٩٦٥ ص ١٤

* ساطع الحصري ، دراسات عن مقدمة بن خلدون ، بيروت ١٩٦٧ ص١٤

رابعا : لقد ولد هذا الهوس المعماري والتوسع اللاتخطيطي لمدننا مشاكل عديدة لم نلتفت لها في وقت نبه اليها ابن خلدون واستوعبها قبلنا بخمسة قرون ، مما يدل ان وضوح الرويا التخطيطية هي احدى مساهمات العرب في مجال التخطيط . اذ كيف نشكو من مشاكل عالجها ابن خلدون وحذرنا منها منذ اكثر من خمسمائة سنة خلت ؟ . كيف سمحنا لذلك ان يحدث وبدون الرجوع الى مدارسنا المعمارية التخطيطية ؟ .

ان النبؤات التي جاء بها ابن خلدون صدقت على اوضاعنا ، وستصدق على اوضاع مقبلة مما لايدع مجال للشك في ان تراثنا العلمي ـ وهنا تخطيطي ـ ليس صفحة مطوية نخجل منها . انه صفحة تحتاج الى فهم وقراءة بلغة معاصرة حينذاك سنجد فيها العديد من الحلول لما في مستوطناتنا التي تطورت باسم التخطيط ، ولكن واقعياً بسياسة اللاتخطيط . ان المشاكل التي رافقت هذا النمو الاوكروباتيكي ـ العشوائي لغالبية مدننا وخاصة في الفترة بعد الحرب العالمية الثانية وحتى نهاية الستينات هي مشاكل انخفاض وتدهور في الكفاءة الوظيفية وكفاءة الخدمات المقدمة من المدن الى جانب الانخفاض الواضح في جمالية مدننا هذه وكفائتها في التفاعل الصحي العضوي مع اقاليمها .

خامسا : لقد نمت هذه المشاكل بوتائر تفوق وتائر الحلول المقدمة ، وذلك ببساطة لاختفاء عنصر التخطيط الذي وضع العرب فيه مدرسة رائدة هي مدرسة ابن خلدون، والتي لم نلتفت لها أو نحاول ذلك لاننا وللاسف قد بهرنا في بهرجة المدنية الغربية ولم نفرق او نحاول بين تقليد الغرب (الفرنجة) والمدنية وبين الحضارة والتكنولوجيا . اننا لو حاولنا ذلك لاستطعنا اختياريين وقادرين على الاختيار سواء كان ذلك من تراثنا ام من منجزات الغرب .

سادسا : لقد فشلنا في ان نفهم المتغيرات التي تلعب في وتؤثر على مستوطناتنا في حين ان اجدادنا ـ ممثلين بابن خلدون في مجال التخطيط ـ قد وعوا ذلك مما يمثل أهم عنصر من عناصر نجاح التخطيط • نعم لقد تغافلنا في حين نجح ابن خلدون، كما لم ينجح قبله سوى ارسطوطاليس وافلاطون في معالجتهما بشكل او اخر لقضايا المدن • ان ذلك يدفعنا الى أن نعيد النظر في تراثنا لنتعرف على الحي الاصيل منه وفق معايير العصر مما يمكن استخدامه لخدمة مستقبل اجيالنا ولادة من الماضـــي ورعاية من الحاضر •

سابعا : لقد تعددت تعاريف أو مفاهيم المدينة في الوقت الحاضر مما خلق مدارس في ذلك اسهمت في تردي مستوطناتنا البشرية المدينية • وهو ماقد انغمرنا به نحن ايضا ، في حين ان العرب من خلال ابن خلدون قد استوعبوا المدينة وحددوا معناها وعلى اسس موضوعية تصلح ان تكون منطلقا لتخطيط سليم وواع • فهاكم ابن خلدون يستوعب المدينة بطريقة لم تستوعبها المجلدات المعاصرة • لقد استوعبت المدينة من قبله على انها انسان يسكن ويبني ويعمل ويتثقف ويمارس الادارة • ان ذلك يعني أنه قفز وبوعي الى النظرية المورفولوجية المعاصرة التي تؤمن بتزاوج الوظيفة بالشكل[٣] • ان اي عمل من اعمال ساكن المدينة بالنسبة لابن خلدون ماوى يؤويه • فهناك المسكن ومحل العمل ومحل قضاء الوقت • كما وهناك من هو مسؤول عن تنظيم وادارة ذلك • وهناك المجال الذي يتحرك فيه محور هذه الوظائف وهو الانسان ، وهذا المجال هو فضاءات الشوارع باشكالها ودرجاتها • اذن فهناك المورفولوجية التي لم يفهمها بعضنا حتى الوقت الحاضر •

---

٣ ـ M.R.G. Conzen, Alnwick, Northumberland, A Stuly in Twon plan Analysis, I.B.G. Publ 2nd Ed, 1969, pp. 7, 16, 38, 47, 100

اما في ذلك انجاز حضاري في المجال التخطيطي مابعده انجاز • ؟ ان لم نقره فهاكم احدث مدارس التخطيط المعاصرة في انكلترا والولايات المتحدة وفي شرق العالم حيث تنهمك اقسام التخطيط في اشهر جامعات هذه الاصقاع من دنيانا في بلورة مفهومة مما يخدم عملية التخطيط •

ثامنا : في الوقت الذي لم نفهم فيه العلاقة الجدلية بين وحدة الحضارة وهو الانسان ووحدتي الزمان والمكان مما يشكل كائنا حيا ، كائنا عضويا يمارس افعاله وردود افعاله لاي من المتغيرات التي تعمل داخله او في مايحيطه (الاقليم) فلقد تفهم ذلك ابن خلدون وعبر عنه في اوجز وادق واغرز الكلمات • لقد فهم المدنية على انها كائن حي قد ينمو ويزدهر أبدا وقد يتوقف عن النمو بل قد يموت • وها هي قصص تاريخ المدن تحكي صدق نظرية العرب ، نظرية ابن خلدون في تخطيط المدن • ان اعتبار المدينة كائنا حيا بالنسبة للعديد من معاصرينا العرب يعتبر اقرب للكفر وتجاوز الواقع في حين ان الجواب لهؤلاء هو عند ابن خلدون الذي اوضح وبطريقة لم يستفد منها الا الغرب ــ قبل هؤلاء ــ ذلك الجواب العلمي الذي استوعب المدينة على انها ذات ابعاد أفقية ورأسية ، يحدد العلاقة بينهما الانسان وحاجاته •

فالمدينة بالنسبة لابن خلدون اي للتخطيط المديني العربي فضاء (مساحة) وزمان وانسان • والانسان هنا فلسفته بما تحويه هذه الفلسفة من سلب وايجاب ، انه بالنسبة للغة عصرنا المتفرنجة ستراتيجية التخطيط • اين منا عن فهم ذلك مما يخدم عملية التخطيط لمستوطناتنا بطريقة واعية تعي المتغيرات الوظيفية والبشرية التي اشار اليها ابن خلدون ،ومما يساعدنا على توجيه خبراء الغرب او الشرق الذين نستعين بهم ••

تاسعا : لم تتواجد في لغة الغرب التخطيطية مفردة السكون فهناك الداينمية العضوية Organic Dynamacity مما ادركها ابن خلدون قبل ان تفهم من مخططي الغرب ، الذين استوعبوها عن ابن خلدون ، ونحن اخذناها بدورنا عنهم !! اذ كيف بالنسبة للبعض الذي بهر بتكنولوجيا (وليس حضارة) الغرب ، كيف يكون العرب رواد نظرية وتطبيق ؟ نقول لهؤلاء بان لكم تراثكم ، فاستلهموا منه • اذ من المخجل ان نشتري من الغرب بضاعة اشتروها او لربما سرقوها اثناء غفوتنا منا اصلا ؟ لماذا لاننهل مما لنا ؟ ان لنا التراث الحي الذي لا علاقة له بالجمود ، وها هو ابن خلدون ومدرسته في مجال التخطيط الاستيطاني ـ الذي نحن بصدد دراسته ـ مدرسة ريادية نريد ان نستلهم منها نواة تزاوج فيها ماقد قطعته حضارة الانسان المعاصر في هذا الربع الاخير من قرننا العشرين في التخطيط المديني والاقليمي ، والذي بدأ خطواته في بعض الاقطار العربية كالعراق ، مع ماقد ورثناه من أصيل • نريده تخطيطا عربيا ذا هوية تقف بين هويات التخطيط العالمي وكما ارادها ورآها ابن خلدون •

عاشرا : اننا اذ نؤكد على التراث في مجال التخطيط المديني والاقليمي كما راه ابن خلدون فلا ننكر ان بعضا مما جاء به يعتبر بديهيا او في حكم ذلك الان • ما نريد الخروج منه هو ان نزن الامور بميزان عصر ابن خلدون حينذاك سنجد ان ابداعا عربيا قد تم ، ان مدرسة عربية تخطيطية قد تطورت في وقت كان حتى المشعوذين يسهمون في التخطيط المديني في الغرب لارضاء حكامهم • ومن هنا فنملك الاساس ، نملك الارضية الصلبة التي يمكن تطويرها وزجها فيما استحدثته وفرضته ظروف العصر المعاصر • لو فهمنا هذه البديهيات لتجنبنا الكثير من الاخطاء التخطيطية الساذجة التي وقعنا فيها والتي سيكلفنا تصحيحها الكثير ، مالا وجهدا وزمنا •

احدى عشر : ان مما شجع على علاج اسهام العرب في افق التخطيط المديني والاقليمي هو انشغال الغالبية ممن تناول ابن خلدون من جوانب اخرى. وفي وقت يمكن ان نفيد منه من جانب من تراثنا يمكن ان يسهم في علاج بيئاتنا الاستيطانية . وان هذا الجانب من تراثنا يمكن ان يخدم حاضرنا ومستقبلنا نظرية وتطبيقا . وكما نود ان نبرزه هنا في المدرسة التخطيطية العربية ومن خلال مدرسة ابن خلدون . وبالامكان اثراء الاصالة التخطيطية العربية مما يحدث في هذا المجال الان ، وبذلك اسهام في البناء التخطيطي ـ نظريا ـ وعمليا ـ على مستوى العالم .

اثني عشر : ان توقفنا قليلا من اجل اكتشاف صلاحية تراثنا لان يكون ابن العصر الحالي والمستقبلي في مجال التخطيط البيئي (مديني واقليمي) ، يدفعنا لان نستعرض المجالات التي اسهم فيها عربنا الاجداد ممثلين بابن خلدون . ان اسهامات العرب في المدرسة العالمية للتخطيط ستظهر في المجالات او الاوجه التالية مما سنحاول تفسيره ايجازا على ضوء اهميته لحياة مدننا والتخطيط لها ، بنفس الوقت الذي ندعو فيه الى ان نفتخر بشخص اضاف الى العالم مثل ابن خلدون ، والذي قدم ما يصلح ان يكون مجال دراسة نظرية وتطبيقية في مؤسساتنا العلمية التي تمارس التخطيط البيئي .

ان اهم الاوجه التي خطا فيها العرب او اسسوها ممثلة باضافات ابن خلدون ، هي :

١ ـ دراسة الموضع والموقع Site and Situation كاحدى خطوات التخطيط الاساسية .

٢ ـ استيعاب البناء الوظيفي للمدينة Functional set-up حيث عالج في هذا الجانب التخصص الوظيفي لكل مستوطنة ولاجزاء المستوطنة الواحدة والعلاقة بين كل ذلك مماله اثر كبير في فهم بنية المدينة وطريقة عملها .

٣ ـ دراسة مراتب المدن (الهايراركي) Urban Hierarchy على اسس يمكن مقارنتها بالنظريات الحديثة وذلك بدافع الوصول الى فهم واع لاسباب تدرج اهمية هذه المدن وانماط توزيعها على معايير عدة منها الوظيفي والخدمي .

ان دراسة النقطة السابقة قدوضعت ابن خلدون على اعتاب مايعرف في قرننا هذا بالنظرية المركزية Central Place Theory التي تحاول تفسير أهمية المستوطنات وبالتالي انماط التوزيع لمراكز الاستيطان .

٤ ـ مورفولوجية المدينة Urban Morphology ومن خلال التعرض لهذا الجانب الهام جدا من الدراسات المدينية فقد اوصل ابن خلدون الدراسات المدينية العربية الى مستوى من التطور لم يبدأ العالم بالاهتمام به الا حديثا جدا . لقد اعطى ابن خلدون اهمية لدراسة فن العمارة Architecture اذ استعان بذلك لفهم موروفولوجية المدينة ومن خلال العلاقة العضوية بين الوظيفة والشكل Funtion and Form

٥ ـ المرافق والخدمات Services and Utilities حيث اكد على اهميتها كأهم عامل من عوامل جعل المستوطنة فضاء يليق بالانسان والمجتمع .

٦ ـ البيئة Environment لقد عالجت نظريات ابن خلدون التخطيطية وباهتمام موضوع البيئة واهمية ضمان حدا ادنى لصحيتها قبل ان تلتفت اليه الدول المتقدمة ومنظمات الامم المتحدة بمدة تزيد على ٥٧٠ سنة[٤] .

---

٤ ـ د . عبد اله موجود ، البيئة البشرية ، مجلة الجامعة ، (المركز الثقافي الاجتماعي في جامعة الموصل) العدد ٩ السنة ٧ ، ١٩٧٧ ص ٣٦ـ ٣٧
د . سعيد كنانة ، الابعاد العلمية للبيئة وتلوثها واختصاصها (نفس المجلة والعدد) ص ٣٨ ـ ٤٤

٧ ــ التميز بين القطاعين الخاص والعام Private and Public Activities
وهنا فقد توصل الى احدث نظريات التخطيط وهي الاهتمام باسهام المواطنين في عمليات التخطيط المختلفة •

٨ ــ الاهتمام بالجانب القانوني للتخطيط Planning Codes and Ordinances
لقد اكد ابن خلدون على ذلك لانه كان واعيا الى استحالة تطوير المستوطنة وبالصيغة المنشودة بدون ممارسة انواع التخطيط وبمستوياته وبضمان قانوني •

٩ ــ المدينة كائن حي City as an Organ من كل ماسبق وعلى ضوء المقومات السابقة للمدرسة الخلدونية التخطيطية تم التوصل الى اكتشاف حقيقة كون المركز الاستيطاني عبارة عن كائن حي يتفاعل مع العديد من المتغيرات داخل حدودها وضمن البعد الاقليمي الذي اكتشف اهميته ابن خلدون ايضا •

١٠ ــ العلاقة بين المستوطنة والاقليم Settlement-Region Concept
لقد استوعب ابن خلدون هذا المفهوم والتي تتمثل في علاقة عضوية أزلية متبادلة التأثير بين المستوطنة واقليمها •

تمثل الجوانب السابقة اهم مقومات المدرسة التخطيطية العربية وأهم مجالات الريادة التي اسهمت والى حد بعيد في بلورة المفاهيم والنظريات الحديثة في حقول التخطيط المديني والاقليمي والقومي مما يشكل ركنا هاما من اركان حضارة الانسان المعاصرة •

سنستعرض الان كلا من المقومات السابقة محاولين ــ وبايجاز ــ ان نستوضح الابعاد التي توصل اليها العرب في ميدان التخطيط الطبيعي Physical Planning الذي يغطي كل ما يشمله التخطيط المديني والاقليمي والقومي •

١ ـ الموضـع والموقـع : Site and Situation

ان الاهمية التي اعطاها ابن خلدون لفهم هذين المتغيرين اللذين غالبا مايحددان درجة صحية ونجاح المستوطنة في الديمومة لتقديم خدماتها لساكنيها وساكني اقاليمها تجعلنا نستعرض مايجري في عالمنا المعاصر عندما يراد انشـاء مستوطنة جديدة ،اذ تبذل الجهود والاموال والزمن من اجل المسح والدراسة لايجاد المكان المناسب الذي يتمتع بمقومات النجاح للمستوطنة المرادة • هذا فيوقت قد توصل فيه ابن خلدون الى ذلك منذ القرن الرابع عشر • لقد ميز ابن خلدون بين الموضع والموقع • فالموضع هو الذي يمثل المكان الذي تغطيه (تشغله) المدينة او المستوطنة فعلا والذي يشمل كل الخصائص الطبيعية لذلك المكان • اما الموقع ، فهو الذي يمثل مكان المدينة (موضعها) بالنسبة لمـا يحيطها من مساحة تتفاعل معها بشكل او اخر (مباشرة او غير مباشرة) • لقد رسم ابن خلدون بذلك العلاقات المكانية بين وحدات المساحة ودرجة مكانة هذه العلاقاتعلى ضوء ميزات الموضع والموقع وعوامل الجذب والطرد Push and Pull بين وحدات المساحة تلك •

ويمكن ملاحظة اهمية اعتبارات الموضع عند ابن خلدون من قوله :

« وان يكون وضع ذلك في متمنع منالامكنة اما على هضبة متوعرة من الجبل واما باستدارة بحر او نهر بها حتى لاوصل اليها الا بعد العبور على جسر او قنطرة فيصعب منالها على العدو ويتضاعف امتناعها وحصنها »[٥] •

لقد شخص ابن خلدون في مقولته اعلاه مانراه اليوم واضحا في العشرات من المدن التاريخية وفي مختلف انحاء الدنيـا •

ويظهر ايضا اهتمام ابن خلدون في الموضع والموقع عندما اكد على ضرورة وجود مقومات الحياة للانسـان والحيوان وهي المـاء وغيرها من الثروات الطبيعية حين يقول :

---

٥ ـ مقدمة العلامة ابن خلدون ، دار احياء التراث العربي ، بيروت ، الطبعة الرابعة ، غير مؤرخة ص ٣٤٧ .

« وقد يكون الواضع غافلا عن حسن الاختيار الطبيعي او انما يراعي ماهو اهم على نفسه وقومه ولايذكر حاجة غيرهم كما فعله العرب لاول الاسلام في المدن التي اختطوها بالعراق وافريقية فانهم لم يراعوا فيها الا الاهم عندهم من مراعي الابل وما يصلح لها من الشجر والماء والملح ولم يراعوا الماء ولا المزارع ولا الحطب ولا مراعي السائمة من ذوات الظلف ولا غير ذلك كالقيروان والكوفة والبصرة وامثالها ، ولهذا كانت اقرب الى الخراب مالم تراع فيها الامور الطبيعية »[٦] .

لقد لعب جانب الموقع الستراتيجي واهميته في الدفاع عن المدن دورا كبيرا في تفكير ابن خلدون منطلقا من فهمه لطبيعة تطور تكنولوجيا الحرب وقتذاك .لذلك فقد اكد ان تتصف مواضع ومواقع المدن ــ سواء برية كانت ام بحرية ــ (الساحلية) بمواصفات معينة لكيما يسهل الدفاع عنها وتزداد منعه امام الاعداء . فبالنسبة لمواضع المدن البرية (الداخلية) فيرى ضرورة تحصينها لكي تزيد من امكانيات الدفاع التي يوفرها لها موضعها ، وبهذا الخصوص فيقول :

« فيعتصم بذلك المصر ويغالبهم مغالبة المصر على نهاية من الصعوبة والمشقة ،والمصر يقوم مقام العساكر المتعددة ، لمافيه من الامتناع ونكاية الحرب من وراء الجدران ، من غير حاجة الى كثير عدد ولاعظيم شوكة .... فان وجود الحصون يفت في عضد الامة التي تروم الاستيلاء على المدينة ويخضد شوكة استيلائها »[٧] .

---

٦ ــ المقدمة ص ٣٤٩ .

٧ ــ المقدمةص ٣٤٤

ومصداقا لاهمية جانب التحصين فيمكن ان نستعرض الادوار التي لعبتها اسوار بغداد ودمشق وتونس ونيوكاسل والمدن الصينية المسورة ولنينغراد ، وغيرها من المدن في مجال الدفاع ، تظهر اهمية الاسوار الدفاعية وبالتالي اهميتها المعمارية في مختلف مراحل تطور المدن وخاصة في فترتي القرون الوسطى وعهد النهضة .

اما بالنسبة لمراكز الاستيطان الساحلية فقد شخص ابن خلدون اهمية تحصينها باختيار الموضع والموقع المناسبين وكذلك بتحصينها مما يوفر لها فرص الدفاع والحماية لكيما تستمر في تأدية الوظائف التي نشئت من اجلها لقد اخذ بذلك في العديد من الامثلة و في مختلف انحاء الدنيا مما يظهر وضوح الرؤيا في هذا الميدان التخطيطي للمدرسة العربية ، ويقول في هذا المجال :

« ان المدينة اذا كانت حاضرة البحر ولم يكن بساحتها عمران للقبائل أهل العصبيات ولا وضعها متوعر من الجبل كانت في غرة للبيات وسهل طروقها في الاساطيل البحرية على عدوها وتحينه لها لما يأمن من وجود الصريخ لها وان الحضر المتعودين للدعة قد صاروا عيالا وخرجوا عن حكم المقابلة وهذه كالاسكندرية من المشرق وطرابلس من المغرب وبونه وسلا ، ومتى كانت القبائل والعصائب موطنين بقربها بحيث يبلغهم الصريخ والنعير وكانت متوعرة المسالك على من يرومها باختطاطها في هضبات الجبال وعلى اسنمتها كان لها بذلك منعة من العدو ويئسوا من طروقها لما يكابدوه من وعرها وما يتوقعونه من اجابة صريخها كما في سبته وبجاية وبلد القل على صغرها »[٨] .

لقد ربط ابن خلدون بين الموضع وميزاته الدفاعية بالنسبة للمستوطنة وبين اقليمها السكاني المعمور Ecumene حيث قد اعطى اهمية لعدد سكان الاقليم المحيط بالمستوطنة فهناك علاقة ايجابية بين هذا العدد والموضع من ناحية وبين امكانية الدفاع . لقد قال ابن خلدون في هذا المجال :

---

٨ ـ المقدمة ص ٣٤٩

« ومما يراعى في البلاد الساحلية التي على البحر ان تكون في جبل أو تكون بين أمةمن الامم موفورة العدد تكون صريخا للمدينة متى طرقها طارق من العدو[٩] » .

ان استعراض توزيع المستوطنات البشرية المدينية في شتى انحاء العالم يظهر لنا كم كان صائبا ابن خلدون في وضعه لمواصفات الموضع والموقع الملائمين ، وكم من مدن قد تدهورت أو اضمحلت جراء عدم الاخذ بما اورده ابن خلدون . ان اختطاط المدن الجديدة مثل كانبيرا وبرازيليا تظهر لنا فاعلية وعملية المدرسة العربية التخطيطية في مجال اختيار الموضع والموقع كاحدى اهم المنطلقات السليمة للتخطيط السليم .

البناء الوظيفي : Functional Structure

تعني وظيفة مراكز الاستيطان البشرية بالنسبة لابن خلدون الكفاءة ، اذ بدون كفاءة فسوف لن تتحقق الحياة السليمة المريحة لسكان هذه المستوطنات وسكان اقاليمها . وتطوير الكفاءة الوظيفية هنا يتم عن طريق التخطيط لحماية المدن من اي نوع من الاضرار سواء كانت هذه الاضرار بشرية نتيجة للهجوم أو بيئية جراء استشراء وباء معين . أما الطريق الثانية فهو من خلال توفير الخدمات والمنافع الضرورية لها والتي بدونها سوف لن تعمل المدينة بشكل سليم . ويقول بهذا الخصوص :

« اعلم انالمدن قرار تتخذه الامم عند حصول الغاية المطلوبة من الترف ودواعيه ... وينتقل الى ولما كان ذلك القرار والمأوى وجب ان يراعى فيه دفع المضار بالحماية من طوارقها وجلب المنافع وتسهيل المرافق لها ، فاما الحماية من المضار فيراعى لها ان يدار على منازلها جميعا[١٠] » الى جانب هذا وكما سنرى بعد قليل فانه يكاد ان يتحسس ماستؤول اليه المستوطنات البشرية من جراء الخلط الوظيفي غير الصحي واختفاء الخدمات التي ستزيد من هبوط نوعي في وظائف المدن مما سينعكس على قناعة وراحة الساكنين .

---

٩ ـ المقدمة ص ٣٤٧

١٠ـ المقدمة ص٣٤٧ـ٣٤٩

لقد قصد ابن خلدون في مقولته هذه ما يسمى حاليا بالتخصص المكاني ولم يظهر اي نوع من الاجراءات القانونية لضمان مثل ذلك في دنيانا المعاصرة قبل نهاية القرن التاسع عشر في اوربا وبعد ذلك بعقدين من الزمان في الولايات المتحدة الامريكية (١١) . ان تجاهل توجيهات ابن خلدون التخطيطية في هذا المجال قد اساء للعديد من المدن مثل الكويت وبغداد الى حد قريب وبيروت والقاهرة ودلهي والعديد من المدن الصناعية في شمال غرب اوربا .

لقد خصص ابن خلدون فصلا كاملا من مقدمته لهذا الموضوع الهام وهو الفصل الذي أسماه « فصل فيما يجب مراعاته في اوضاع المدن وما يحدث اذا اغفل عن المراعاة » وهو الفصل الخامس من الباب الرابع من المقدمة .

ورغم اكتشافه لحقيقة واهمية التخصص الوظيفي Functional specialization وكذلك لوحدة المساحة داخل المدينة وهو ما يعرف الان بالتنطيق الوظيفي Functional Zoning فانه قد ميز بين المدن على اساس وظيفي اي بالرغم من ادراكه لان اي من المستوطنات البشرية انما تقدم اكثر من وظيفة بآن واحد فانه بالامكان ايجاد نوع من التخصص لكل من هذه المدن وذلك بالاستناد على كمية وكيفية الممارسة الانتاجية او الخدمية التي تقدمها كل مستوطنة وبالتالي المساحة التي تخدمها بغض النظر عن انتماء هذه المساحة المكاني اقليميا ام قطريا اوقوميا ام حتى عالميا . واكثر من ذلك فقد ميز ابن خلدون بين الوظائف التي تقدمها بشكل طبيعي اي وهي مؤهلة لها نتيجة لتوفر عوامل نجاح تقديم هذه الوظائف ، وبين تلك الوظائف التي تفرض على بعض المدن والتي ما ان تنتهي الظروف التي ساعدت على ظهورها حتى تتلاشى تلك الوظائف وهو مايؤدي لاشك الى تدهور واحيانا حتى فناء تلك المدن التي زال سبب انعاشها ووجودها . هذا مقارنة مع المدن ذات

١١ـ Jon. D.M. Boeck, the Functions of urban Areas. The professional Geographer, 6. 1953, pp. 2-5; F-S. Chapin Urban landuse Planning, New York 1957.

الوظائف المستندة على عوامل ثابتة وطبيعية مما يؤهلها لان تدوم فترة اطول .
وفي هذا المجال يقول ابن خلدون :

« الدولة اذا اختلت وانتقضت فان المصر الذي يكون كرسيا لسلطانها ينتقض عمرانه وربما ينتهي انتقاضه الى الخراب[١٢] » .

ويفسر ابن خلدون ذلك اكثر في اقوال اخرى يشير فيها الى انه ما ان تزال ـ لسبب او اخر ـ مراكز الحكم من مدينة ما حتى يغزو التدهور عمرانها جراء التشتت والاضمحلال لوظائفها لان الحاكم الجديد غالبا ما لا يبقي من المقومات السابقة التي كانت مرتبطة بالحاكم السابق . وقد يصل ذلك الى تشريد معاني السلطة السابقة سواء كان ذلك تهديدا أم ترغيباً ، وذلك اطمئنانا من السلطة الجديدة الى ان الامور باتت مأمونة وكما يريدون ، وبهذا يقول ابن خلدون :

« بعضهم على نوع التغريب والحبس ،وبعضهم على نوع الكرامة والتلطف بحيث لاتؤدى الى النفرة حتى لايبقى في المصر الكرسي الا الباعة من اهل الفلح والعيارة وسواد العامة[١٣] » .

وعند معالجته للبناء الوظيفي للمدينة ، نجده يبرز اهمية بعض هذه الوظائف على غيرها ، وذلك لفاعلية تلك الوظائف خلال الفترة التي عاشها ومن جملة الوظائف هاتيك ، كانت الوظائف الادارية والدينية والتجارية والدفاعية . فتظهر اهمية الوظيفة الادارية في انعاش او تدهور المدينة من المقولتين السابقتين ، الا ان ابن خلدون يعود فيقول بانه ما ان تعود السلطة المركزية الى مدينة ما حتى وان تبدلت تلك السلطة إلاو تبدأ المدينة انتعاشها من جديد من خلال تقديم هذه الوظيفة المركزية التي قد تتجاوز منطقة تأثيرها Area of Influence حدود البلد الذي تقوده تلك المدينة .. لقد شخص اهمية الجانب الوظيفي على الجانب العمراني للمدينة ، وبذلك يقول :

١٢ـ المقدمة ص ٣٧٤

١٣ـ المقدمة ص ٣٧٥ـ ٣٧٦

« ربما ينزل المدينة بعد انقراض مختطيها الاولين، ملك آخر ، ودولة ثانية يتخذها قرارا وكرسيا ، يستغنى بها عن اختطاط مدينة ينزل بها • فتحتفظ تلك الدولة سياجها ، وتتزايد مبانيها ومصانعها بتزايد اموال الدولة الثانية وترفها وتستجد عمرا اخر [١٤] » •

وقد ضرب مثلا مدينتي فاس بالمغرب العربي والقاهرة حيث عايشهما ابن خلدون واستوعب مقوماتهما تبعا لذلك •

اما الوظيفة الدينية فلم يهملها ابن خلدون في مدرسته التخطيطية • ولقد كان ذلك من خلال استيعابه للاهمية المزدوجة للجانب الديني في المستوطنات البشرية • فهي وظيفة هامة تستقطب وظائف اخرى مثل الوظيفة السكنية والتجارية والخدمات مما يدفع الى ازدهار المدينة الى جانب كون المنشآت التي تمارس منها الوظيفة الدينية تعتبر مظاهر ذات قيمة روحية وعمارية تتجاوز المرحلة التي ظهرت فيها • فالمنشآت الدينية بالنسبة للمدينة الملجأ الروحي لا يمن سكان المدينة واقليمها مما يوفر مجال ممارسة الرياضة الروحية والنفسية التي تخلق انعاشا جديدا تدفع الساكن الى ممارسة حياته الاجتماعية بعد ذلك بصفاء ذهني ووضوح رؤيا • لقد استوعب ابن خلدون ذلك في وقت نرى فيه غالب مخططينا ــ في الوطن العربي ــ او من قفز الى مثل هذا الموقع يتجاهلون وبشكل اقرب الى السذاجة اهمية مثل هذه المنشآت كأحدى محاور تخطيط المدن او الاحياء العربية سواء من ناحية وظيفية (اجتماعية ــ اقتصادية) أم ناحية عمارية ام من ناحية حضارية لابد من ملاحظتها اذا ماردنا لهويتنا العمارية العربية نوعا من الاصاله التي باتت مهددة تحت هوس وضغط ما هو طارىء على التخطيط وباسمه •

١٤ــ المقدمة ص ٣٤٣

لقد اهملت في غالبية الحالات اهمية العلاقة العضوية الصحية بين وحدات التخطيط الدينية ـ على اشكالها ـ وبين الوحدات التخطيطية التي تكون المدينة • وان ذلك قد جعل الكثير من الاحياء الحديثة او حتى المدن المنشأة في قرننا هذا اقرب الى المعسكرات التي تفتقر الى الملاجىء الروحية ـ الدينية • وقد اسهم هذا الى حد بعيد في درجة القبح والبعد عن الجمال الذي نراه في مدننا التاريخية أو الاجزاء المتبقية منها ، مما قد اشار اليه واستوعبه ابن خلدون والذي بدأت بعض مدارس التخطيط والعمارة المعاصرة بالتنبيه له والدعوة الى عدم تجاهله • لقد قال ابن خلدون استيعابا منه لاهمية الوظيفة الدينية :

« اعلم ان الله سبحانه وتعالى فضل من الارض بقاعا اختصها بتشريفه وجعلها مواطن لعبادته يضاعف فيها الثواب وينمو فيها الاجور » ، واستمر في قوله يوضح فيها ان المساجد الثلاثة « مكة والمدينة وبيت المقدس »[١٥] هي افضل بقاع الارض ، حيث قال :

« فهذه المساجد الثلاث قرة عين المسلمين ومهوى افئدتهم وعظمة دينهم[١٦] »•

من ذلك نرى الربط العضوي بين عظمة الامة واهمية مراكز الديانة وكذلك الاهمية الروحية ليس لسكان المدينة بل لسكان كل اقليم وهم ابناء الامة جميعا •وبالنسبة للوظيفة التجارية للمدينة فقد اكد عليها ابن خلدون من خلال تأكيده على ضرورة وجود اقليم تابع للمدينة تتوفر فيه او ينتج الاقوات التي يسهل ايصالها وتسويقها في المدينة • وكأنه بذلك يشير الى ان تخصص المدينة بخدمات ووظائف معينة يقابلها تخصص الاقليم بوظائف اخرى تفرض التبادل وتنمي التجارة •كما وقد اعطى للبحار اهمية معينة كوسيلة ربط

١٥ـ المقدمة ص ٣٤٩ ـ ٣٥٠

١٦ـ المقدمة ص ٣٥٠

تجارية وليس فصل مما يوضح انه في حالات عدة تكون المدينة مركزا للتبادل التجاري ليس في حدود الاقليم الضيق بل على نطاق عالمي . فيقول في هذا المجال :

« فان الزروع هي الاقوات ، فاذا كانت مزارع البلد بالقرب منها كان ذلك اسهل في اتخاذه واقرب في تحصيله[١٧] » ، كما يقول : « وقد يراعى ايضا قرب المدينة من البحر ، لتسهيل الحاجات القاصية من البلاد النائية ، الا ان ذلك ليس بمثابة الاول[١٨] » .

كما ولم يهمل الوظيفة الدفاعية للمدينة ، وقد ناقشنا ذلك عند الكلام عن الموضع والموقع .

لقدربط ابن خلدون تعدد الاسواق وسعتها داخل المدينة بحجم المدينة الذي يحكي هو الاخر قوة واستقرار ورفاه الدولة كما يحكي قصة سعة اقليم المدينة . وعندما يذكر تعدد الاسواق فانه ينقلنا الى نظرية التركيب التجاري المعاصرة التي طورت في الغرب حاليا[١٩] . ان تعدد الاسواق لاشك سيخلق نوعا من نظام المراتب التجارية Commercial Hierarchy الذي اصبح الان انجازا لدى البعض في حين أن ابن خلدون قد قدمه لنا قبل ستة قرون كأرث نظري وتطبيقي عربي ، فها هو يقول :

« وان كان امد الدولة طويلا ومدتها منقسمة فلا تزال المصانع فيها تشاد والمنازل الرحبة تكثر وتتعدد ، ونطاق الاسواق يتباعد وينفسح الى ان تتسع الخطة وتبعد المسافة وينفسح ذرع المساحة[٢٠] » .

١٧ـ المقدمة ص ٣٤٨

١٨ـ المقدمة ص٣٤٨ـ٣٤٩

١٩ـ M.J. Prodfort, City Retails Structure, Economic Geography 13, 1937, pp. 428—435.

G.M. Ahmed, The Retails Structure and Function of Baghded, Iraqi Geographical Journal 3, 1965, pp. 1-23.

٢٠ـ المقدمة ص ٣٤٣

٣ ـ دراسة مراتب المدن : Urban Hierarchy (Central Place Theory)

لقد عالج ابن خلدون جوانب من هذه النظرية عندما تكلم عن مراكز الاستيطان وبعثرتها مؤكدا على اهمية التركيز والتخصص الوظيفي لكل منها متمثلا او مترجما الى احجام هذه المراكز • لقد ميز بين المستوطنات القاصية (المتطرفه) وتلك المتوسطة (المركزية) واعطى الاخيرة الاهمية الكبرى بحكم خدمتها لاقليم اوسع مما جعل النوع الاول من المستوطنات تعتمد وباكثر من صيغة على المدن المركزية وان هذا النوع من التبعثر يحدده درجة التخصص التي اشار اليها ابن خلدون ووسائل النقل ونوع الطوبوغرافية السائدة •

لقد استوعب حقيقة كون المدن العاصمية هي اكثر مراكز الاستيطان «تعملقاً» • ان كون المدينة عاصمة يعني انها مقعد الحكم ، أي انها تمثل قمة الادارة الذي تتجاذب معه ونحوه الوظائف الاخرى ، وان هذا التجاذب الوظيفي يزداد كلما ازدادت مركزية الحكم • وينعكس هذا التجاذب على حجم المدينة وطرز عمارتها وزيادة اهميتها مقارنة معتلك المدن او المستوطنات الاقل تخصصا ، والتي تحتل مواقع « قاصية » أي متطرفة مما يحدد منطقة خدماتها Service Area وبالتالي يقزم من حجمها • ان هذا التسلسل او الترتيب في الاهمية يدل على شمولية نظرة ابن خلدون والتي لم تستوعب الا بعد الربع الاول من قرننا هذا فيبعض دول اوربا وان كان قد وردت بعض الاشارات حوله قبل ذلك •

لقد اشار ابن خلدون الى بعثرة مراكز الاستيطان الريفية الواضح مقارنة مع المراكز الاستيطانية المدينية التي تتصف بالتمركز عادة او بدرجة معينة من المركزية Centrality ، وبهذا المفهوم وحوله يقول :

« ولهذا تجد الامصار التي في القاصية ولو كانت موفورة العمران تغلب عليها احوال البداوة وتبعد عنالحضارة في جميع مذاهبها بخلاف المدن المتوسطة في الاقطار التي هي مركز الدولة ومقرها ، وما ذلك الا لمجاورة

السلطان لهم وفيض امواله فيهم كالماء يختر ماقرب منه فما قرب من الارض الى ان ينتهي الى الجفوف على البعد[٢١] »

ان الماء هنا ومسالك تسربه تمثل طرق المواصلات التي هي شرايين الحياة الوظيفية بالنسبة لمراكز الاستيطان. ان اعلى تجمع لهذه المواصلات يحدد اعلى درجة للوصول Ease of Accessibility وهو ما يحدث في العاصمة التي تمثل الماء في مجاز ابن خلدون ، في حين تمثل المراكز الثانية مناطق تقل فيها او تصعب فيها ، واليها درجة الوصول مما يسهم في تحديد حجمها . يحدد عاملا المواصلات وتركز الوظائف احجام المدن وهو مااستطاع ان يراه ابن خلدون سابقا غيره بقرون تقرب من الست . ولكننا للاسف قد اهملنا في اكثر من جزء في وطننا العربي عندما خططنا او حاولنا ان نخطط على مستوى القطر أو اقاليمه وهو الذي التفت اليه الغرب حيث تطورت اكثر من نظرية معاصرة نستوردها الان لنعالج بعض مانحن فيه في مجال التخطيط الاقليمي .

لقد ربط ابن خلدون ـ كما قلنا ـ بين استقرار الحكم ومدة هذا الاستقرار وامكانياته المالية بنوع المراكز الاستيطانية وماتقدمه من وظائف تعيش في وحدات بنائية مختلفة . لقد استطاع ابن خلدون ، اعتمادا على نظرية المراتب المدينية هذه ان يفسر ظاهرة تكتل المدن او ما يمكن تسميته Urban Agglomeration حاليا . وقد اخذ مدينة بغداد مثالا لذلك زمن العصر العباسي الذهبي حيث قد اعتبرها افضل مدن عصرها واهمها وظيفة مما جعلها اوسعها عمرانا نتيجة لذلك . ان المحيط والتفاعل بين الوظيفة والشكل والحجم قد شخص من قبل ابن خدون وبطريقة علمية عملية

٢١ـ المقدمة ص ٣٦٩

Walter Christaller, Central Place in Southern Germany, translated from Germany by Carlisle W. Baskin, London 1966, F.H. Green, Notes on the Hierarchy of Central Places and their Hinterlands, Economic Georg. 34, 1958. pp. 210—220.

بسيطة عجزنا نحن عن استيعابها قبل النصف الثاني من قرننا الحالي • انه حين يتكلم عن ذلك يشعرنا بانه قد سبق لويس مفورد L. Mamford عندما يتكلم عن مدن طوكيو والقاهرة وشيكاغو • ولندع ابن خلدون يحكي لنا قصة مراتب المدن وعلاقة ذلك بالتحجيم :

« وان كان امد الدولة طويلا ومدتها منفسحة ، فلا تزال المصانع فيها تشاد والمنازل الرحيبة تكثر وتتعدد ، ونطاق الاسواق يتباعد وينفسح الى ان تتسع الخطة وتبعد المسافة وينفسح ذرع المساحة كماوقع ببغداد وامثالها • .... وكانت مشتملة على مدن وامصار متلاصقة ومتقاربة تجاوز الاربعين ولم تكن مدينة وحدها يجمعها سور واحد لافراط العمران[٢٢] » •

ان كل ذلك يدل على ان ابن خلدون قد اسهم في تطوير اكثر من نظرية تخطيطية وضمن شمولية لم نرها حتى الان الا في حالات معدودات من تجارب بعض المدن في العالم •

٤ ــ مورفولوجية المدينة Urban Morphology

من قرائتنا واستيعابنا لما قاله ابن خلدون سنرى اي بعد نظري وعملي وصلته المدرسة العربية التخطيطية • لقد اوجد ابن خلدون مقومات النظرية المورفولوجية التي تؤمن بتزاوج الانسان ووحدة الفضاء (مبنية ومكشوفة) وبين الوظائف المقدمة هذه النظرية التي لازالت تمر في اطوار النضوج[٢٣] • اننا بالرجوع الى ما خلفه لنا ابن خلدون سنجد كم نحن مقصرين بحق تراثنا « الحي » ان ماجاء به ابن خلدون هنا هو تراث يشق طريق الزمن المستقبل

٢٢ــ المقدمة ص ٣٥٩ ــ ٣٦٠.

٢٣ــ Sen-Dou Chang, Some Observations on the Morphology of Chinese walled cities, Annals of the Assoc. of Amer. Geogrs. 60, 1, 1970 pp. 63-91

H. Carter, Aberystwyth, the Modern Development of a Medieval Castle Town in Wales, T.I.B. G. 1958 pp.239—253.

مستوعبا لكل ما سيتمخض عنه هذا المستقبل في مجال بناء المدن وتطورها عضويا لقد قال ابن خلدون :

« واذا تراجع عمرانها وخف سكانها .... قلت الصنائع لاجل ذلك وفقدت الاجادة في البناء والاحكام والمغالاة عليه بالتنميق ، ثم تقل الاعمال لعدم الساكن فيقل جلب الالات (ويقصد بالالات هنا المواد الاولية للبناء) . من الحجر والرخام وغيرهما فتفقد ويصير بناؤهم وتشييدهم من الالات التي في مبانيهم ، فينقلونها من مصنع الى مصنع (المصنع هنا بناء) لاجل خلاء اكثر المصانع والقصور والمنازل بقلةالعمران وقصوره عما كانواولا . ثم لاتزال تنقل من قصر الى قصر ، ومن دار الى دار ، الى ان يفقد الكثير منها جملة فيعودون الى البداوة في البناء واتخاذ الطوب عوضا عن الحجارة والقصور عن التخمين بالكلية فيعود بناء المدينة مثل بناء القرى والمدر ، وتظهر عليها سيماء البداوة[٢٤] » .

لقد ربط ابن خلدون بين الوظيفة والشكل بصورة واضحة جدا مما يدل على فهمه للعلاقة الجدلية بين الاثنين في وقت لم نبدأ ـ نحن الان ـ في استيعابه بالشكل المراد في جامعاتنا . ان قلة السكان ـ لاشك ـ ستؤدي الى هبوط في الاهمية الوظيفية للمستوطنة مما يؤدي بدوره الى انحسار الهجرة نحو مثل هذه المستوطنة مما ينعكس على الوحدات العمارية التي ستتدهور مستوى وانجازا ، وان هذا الوضع سيعمل على الحؤول دون استيراد مواد البناء العالية النوعية سواء من الاقليم المجاور أو البعيد ، وهو ما سيضطر الناس المتناقصين الى تهديم الوحدات العمارية مهما كانت قيمتها التراثية التي (لايعوها) لاخذ مواد بنائها واقامة ابنية اخرى وهكذا الى ان تتحول المستوطنة المدينية الى مستوطنة ريفية تحتضن سكانا ابتعدوا في تخصصاتهم عن الحياة الحضرية التي كانت تسود وقت كانت المستوطنة ذاتطابع مديني.

٢٤ـ المقدمة ص ٣٥٩ـ٣٦٠.

يظهر فهم العلاقة بين الوظيفة والشكل في اماكن اخرى من مدرسة ابن خلدون التخطيطية فهاكموه يقول :

« وتتوجه الى اتخاذ المنازل للقرار ولما كان ذلك القرار والمأوى يجب ان يراعى فيه دفع المضار بالحماية من طوارقها وجلب المنافع وتسهيل المرافق لها ، فاما الحماية من المضار فيراعى ان يدار على منازلها جميعا سياج الاسوار[٢٥] » .

لقد توصل ابن خلدون بهذه الاسس وبما عالجه في موضوع الموضع والموقع والوظيفة الدفاعية للمدينة والتي ناقشناها قبلا ، توصل الى بعد نظري تخطيطي (تطبيقي) بالغ الاهمية في النظرية الموروفولوجية . ان اهمية الدفاع ـ كوظيفة ـ تستلزم نوعا من البناء الذي لابد وان يحاط باسوار بالنسبة للبيوت ، وكذلك الحال بالنسبة للمدينة ككل ، والتي ينبغي ان تزيد تحصين مواضعها باسوار كبيرة ، ان ذلك سيؤدي ـ لا شك ـ الى طبع المدينة بطابع خاص يميزها عن المدن الاخرى سواء اخذت الوحدات الموروفولوجية الصغيرة كالبيوت مثلا ام اخذت المدينة ككل متكامل . وانه اذ ذكر مثل هذا المثال فان ذلك ينسحب ـ لاريب ـ على وظائف اخرى تؤثر على طراز العمارة وصيغ البناء والتخطيط بطريقة او طرق مختلفة لما يخدم غرض تأدية تلك الوظائف بصورة افضل .

لاتكتمل النظرية المورفولوجية او على الاقل حد ادنى من استيعابها بدون التطرق الى طرز العمارة وفنون البناء التي تعكس امكانية الدولة والمدينة ودرجة انتاجية ابنائها الذي غالبا ما لا يتحقق الا عندما تتوفر قوة مركزية موجهة وهو ما فهمه واشار اليه ابن خلدون . كذلك فان الانجاز العماري الكبير لابد وان يكون وراءه قابلية هندسية معمارية متطورة . كل ذلك عوامل يمكن توفرها اذا ماكانت انتاجية المراكز الاستيطانية ووظائفها التي تخدم فيها اقاليمها تبرر ذلك .

٢٥ـ المقدمة ص ٣٤٧

واذا كانت الامكانية والقدرة الادارية والمالية والتطور الحضاري كبيرا الى درجة يبرر ويفسر انعكاسها على فنون البناء ودرجة غطرسته وتعاليه ، لذلك ومرة ثانية فقد تم ربط الوظيفة بالشكل مما يعطي بالتالي اللـــون المورفولوجي النهائي للمدينة • يقول ابن خلدون :

« ان تشييد المدن انما يحصل باجتماع الفعلة وكثرتهم وتعاونهم ، فاذا كانت الدولة عظيمة متسعة المماليك حشر الفعلة من اقطارها وجمعت ايديهم على عملها وربما استعين في ذلك في اكثر الامر بالهندام الذي يضاعف القوى والقدر في حمل اثقال البناء لعجز القوة البشرية وضعفها عن ذلك كالمخال وغيره وربما يتوهم كثيرمن الناس اذا نظر الى اثار الاقدمين ومصانعهم العظيمة مثل ايوان كسرى واهرام مصر وحنايا المعلقة وشرشال بالمغرب ، انما كانت تقدرهم متفوقين او مجتمعين فيتخيل لهم اجساما تناسب ذلك اعظم من هذه بكثير في طولها وقدرها لتتناسب بينها وبين القدر التي صدرت تلك المباني عنها ويغفل عن شأن الهندام والمخال وما اقتضته في ذلك الصناعة الهندسية[٢٦] »* •

الى جانب ذلك فقد قال ابن خلدون اكثر من ذلك حول الفن المعماري والتمييز بين « الغث والسمين » رابطا ذلك بنوع الوظائف التي يراد من كل بناء ان يقدمها ، كما وربط ذلك بقوة الدولة او المستوطنة اداريا وماليا وبنوع المشرفين على البناء ممن له علاقة بهندسة البناء وبذلك فقد فسر لنا ابـــن خلدون مانراه اليوم في مستوطناتنا البشرية من تباين في البناء بين القبيح جدا والمقبول ، وذلك على ضوء نوع المعمار ، فقد صنف المعمار كما يلي :

« واهل هذه الصناعة (اي العمارة والبناء) القائمون عليها متفاوتون فمنهم البصير الماهر ومنهم القاصر [٢٧] » •

٢٦ـ المقدمة ص ٣٤٤ ـ ٣٤٥

٢٧ـ د/سابا جورج شبر ، العلم وتنظيم المدن العربية، الكويت ١٩٦٣ ص٧٢

* وقد يكون من المناسب الاشارة هنا الى انه لم يعرف اسلوب وتكنيك بناء العديد من الابنية العامة ، كالاهرامات مثلا .

وللاسف فغالبية ما انجز من عمارات في مدن عربية مثل الدار البيضاء وبغداد والكويت وعمان لايدل على ان من قام بها وصممها او بالاحرى نقلها كان من النوع البصير الماهر الذي اشار اليه ابن خلدون ، ان لذلك اثره على المورفولوجية النهائية للمستوطنة • لقد تكلم ابن خلدون اكثر عن العمارة او البناء وضرورة استيعابها للبيئة التي تتواجد فيها • وحين يقول البيئة فيقصد ابن خلدون البيئة الاجتماعية والطبيعية من مناخ وطوبوغرافية الخ •• مما تجاهله كل الخبراء الاجانب تقريبا الذين وضعوا تصاميم اساسية لمدننا مثل الكويت (مينوبريو) وبعض مدن السعودية (ماثيو ز) وبغداد (مينوبريو ودوكسيادس) وتعز (لويس بركر وكمبساكس) الخ ••• كما تجاهله او فشل ان يستوعبه ـ للاسف كل الاسف ـ نسبة عالية من مهندسينا المعماريين والمدنيين الذين هم الاخرون قد اسهموا في تشويه معالم بيئاتنا المدينية وظيفيا وجماليا • يقول ابن خلدون مقدما درسا رائعا وغنيا في اصول البناء ومستلزماته :

« هذه الصناعة (اي البناء)أول صنائع العمران الحضري واقدمها وهي معرفة العمل في اتخاذ البيوت والمنازل للسكن والمأوى للابدان في المدن وذلك ان الانسان لما جبل عليه من الفكر في عواقب احواله لابد ان يفكر فيما يدفع عنه الاذى من الحر والبرد » كما ويقول : « كل مدينة على مايتعارفون ويصطلحون عليه ويناسب مزاج هوائهم واختلاف احوالهم في الغنى والفقر[٢٨] » •

لقد رسم لنا ابن خلدون في مدرسته التخطيطية هذه معالم طريق سليمة لمعالجة مشاكلنا الاسكانية (السكنية) واهتم اكثر ما اهتم ـ كما راينا ـ في جوانب الكفاءة الوظيفية ممثلة بانجاز البناء ومنظوره الجمالي المستند على حد اعلى من الفهم والاستيعاب للمتغيرات المؤثرة في البيئة السائدة ، سواء كانت تلك المتغيرات اجتماعية او اقتصادية ام طبيعية (مناخ وطوبوغرافية الخ••) وهو مانحن بامس الحاجة الى فهمه في مرحلتنا الحضارية الحالية التي تحث

٢٨ـ المصدر نفسه ص ٧١ .

الخطى السريعة في مجالات الاسكان وحل مشاكلها • فما نريد هو ان نستلهم من اراء ابن خلدون • وهنا فلابد على الكيف ان يرافق ان لم يسبق الكم فياي مجال او انجاز تخطيطي ، طالما ان ذلك قد اوجد او سيوجد للانسان وحوله • لقد زاد ابن خلدون واستعرض كيفية اقامة الابنية العامة الشاهقة والعملاقة وكيف ان ذلك قد جاء نتيجة فنون الهندسة التي تعالج مشاكل مثل استقامة الحيطان او رفع الاثقال الكبيرة الى ارتفاعات عاليه الخ •• مما هو ذا طابع هندسي معماري اكثر منه تخطيطي عام ولكنه ــ لاريب ــ يلقي الضوء على نسيج المدينة ككل •

٥ ــ المرافق والخدمات والبيئة Services, Utilities and Environment

ان ابرز معالم مدرسة ابن خلدون التخطيطية هي التأكيد على ضمان راحة السكان وضمان توفير حد معين من الكفاءة في مجال توفير المرافق والخدمات التي قد جعلها بالدرجة الرئيسية مسؤولة القطاع العام • لقد اراد لصحة سكان المدينة مستوى مرموقا وكأنه كان بذلك احد عناصر الصحة البيئية او منظمات الامم المتحدة المعنية بحماية الانسان وصحته وموارده ، فها هو يقول :

« المنازع (أي المعالم) المفيدة تطلب كل وسائل الراحة تجعل ممكنة الحدوث في المدن[٢٩] » •

اية اشارة هذه وأية اسس هاتيك التي شخصها ابن خلدون !! •

ان غالبية مدننا حاليا تحاول تطبيق ماجاء بتعليمات ابن خلدون ــ بدون ان تعلم ــ مما يدل كيف ان السبق كان في جانب المدرسة التخطيطية العربية، ومنذ مايقرب من ستة قرون خوال •

ان مدن الحدائق الانكليزية تذكرنا فيما رمى ابن خلدون • ولتوضيح المزيد عن اهمية توفير المرافق وحماية البيئة البشرية نرى ابن خلدون يقول :

٢٩ــ المصدر نفسه ص ٦٢ •

« ومما يراعى في ذلك للحماية من الافات السماوية طيب الهواء للسلامة من الامراض ، فان الهواء اذا كان راكدا خبيثا او مجاور للمياه الفاسدة او منافع متعفنة او مروج خبيثة اسرع اليها العفن من مجاورتها فاسرع المرض للحيوان الكائن فيه لامحالة وهذا مشاهد والمدن التي لم يراع فيها طيب الهواء كثيرة الامراض في الغالب[٣٠] » .

ان العراق كمثل رائد لكثير من الدول النامية قد بدأ الاهتمام بتنقية وحماية بيئته حديثا ، وفي السبعينات من قرننا كما ولم يبدأ اهتمام الدول الصناعية في امر نقا ءالجو وعلاج ماتجلبه الظواهر الجوية ومايصيبه من تلوث الا في النصف الثاني من القرن العشرين وهو بالتأكيد مايجعلنا نضع ابن خلدون وبتقدير في مركز رائد في مجال الدراسات البيئية والتخطيطية لحماية البيئة وصحيتها ، وهو من اهم الامور التي لها علاقة بصحة الانسان والحيوان والنبات المتعايشة في نفس وحدة المساحة[٣١] .

لقد آمن ابن خلدون واكد على ضرورة طرد وابعاد كل ما يتنافى وراحة وصحة الانسان وحماية موارده . وجاء هذا التأكيد هنا في مجال المرافق والخدمات وعند علاجه للتوزيع والتخصص الوظيفي كما سبق وان اشرنا حيث آمن بمبدأ التنطيق الوظيفي لكل من وحدات المساحة مما يمكن الافادة منه في حماية البيئة .

ومن الخدمات التي اشار اليها ابن خلدون هو الماء وضرورة توفيره حيث يمثل اهم عناصر الحياة وحماية الصحة ، حيث يقول :

« واما جلب المنافع والمرافق للبلد فيراعى فيه امور منها المياه بان يكون البلد على نهر او بازائها عيون عذبة ثرة ،فان وجود الماء قريبا من البلد يسهل على الساكن حاجة الماء وهي ضرورة فيكون في وجوده مرفقة عظيمة عامة[٣٢] .

٣٠ـ المقدمة ص ٣٤٧

٣١ـ المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، التلوث ، المحرر د / جمال حسين السمرة . القاهرة ١٩٧٣ ص ٣ـ٨١

٣٢ـ المقدمة ص٣٤٨

لقد اكد على نقاوة الماء بان اشار الى اهمية جريانه او جلبه من عيون عذبة ، والغاية من ذلك هو اعتماده (اي الماء) كمرفق اساسي يغطي اكثر من وجه من وجوه الحياة • لقد عبر ابن خلدون على اهمية حماية بيئة الانسان الاستيطانية من الاحوال الجوية غير المناسبة ذاكرا الحماية من المضار يكون اولا ، باستكمال وسائل الوقاية من غارات الاعداء ، ثانيا بملاحظة وسائل الوقاية من الافات السماوية(*) • ويقصد بالافات السماوية الاضرار الناجمة عن الطبيعة على اشكالها • لقد اوجز ابن خلدون بما قال ولكنه قد ضمن كل ماتؤكد عليه الدراسات البيئية والايكولوجية الان • لقد كان هدفه حماية الانسان صحيا وضمان راحته بتوفر المرافق والخدمات التي يحددها المستوى الحضاري للمجتمع كما انه استهدف ضمان توفر الهواء والماء النقيين وحمايتهما وحماية المستوطنة من كل ماهو ضار • وبذلك فقد وضع ابن خلدون الاطار العام لعلاج مشاكل البيئة من خلال مايوفره الانسان من مرافق وخدمات ومن خلال اهتمامه بتوفير المرافق فقد وضع ابن خلدون ارضية صلبة لبيئة سليمة • اذ ان للمرافق والخدمات علاقة عضوية مع نوع البيئة السائدة فكلما تطورت الخدمات وخاصة بالكيف كلما ضمن حماية البيئة وتحسنها وها هو ابن خلدون يوجز عن البيئة :

وأما الوقاية من الافات فلا يتم الا اذا روعي « طيب الهواء للسلامة من الامراض(٣٣) » •

لقد شخص ابن خلدون بذلك مايمكن ان يحمله تلوث الهواء من اضرار بالانسان وما يتعايش معه من حيوان ونبات • لقد حذر ابن خلدون كما رأينا قبل قليل من اضرار المياه الاسنة والتقرب منها ومن المنافع المتعفنة والمروج الخبيثة التي يسرع اليها العفن مما سيسبب العديد من الامراض للانسان وحيواناته • وربط بين فساد الهواء وانتشار الامراض لدى الانسان وقدضرب

(*) المقدمة ص ٣٤٧ .

٣٣ـ المقدمة ص ٣٤٧

مثلا لذلك بمدينة قابس التونسية(*) . انه بذلك قد أنار الدرب للمهتمين في تخطيط المدن والتخطيط البيئي بضرورة الاهتمام بالمجاري Sewarage وضمان نظام كفؤ لجمع ومعاملة القمامة Waste Disposal ، وما ذلك الا لحماية صحة الانسان . ومن يلاحظ التصاميم الاساسية للعديد من المدن واجراءات السلطات البلدية في اكثر من بلد سيجدان هناك اتفاقا كبيرا بين مايريدون تحقيقه وبين مانصح به وخطط له ابن خلدون . لقد ارسى في الواقع ابن خلدون فلسفة واسلوب معالجة البيئة لخدمة الانسان إن من يقرأ تقارير منظمة الصحة العالمية Who ومنظمة الغذاء والزراعة الدولية FAO ربما سيتصور انهم قد استعانوا باضافات ابن خلدون في هذا المجال .

٦ ـ القطاعين الخاص والعام Private and Public Sectors

بكلام موجز وواضح وغزير المعنى ميز ابن خلدون بين القطاعين الخاص والعام واهمية التعاون بينهما من اجل قيام المستوطنة البشرية المدينية . وهذا مبدأ هام تؤكد عليه غالبية الدراسات التخطيطية المدينية والاقليمية المعاصرة وهو مبدأ اشراك المواطنين بمراحل التخطيط المختلفة وعلى الابعاد المساحية ، طالما ان المردود اولا واخرا هو للمواطنين مما قد دفع المعنيين أكاديميين ومسؤلين لان يضعوا العديد من الكتب والبحوث حول اهمية هذا الجانب ، ولكن بعد مضي مايقرب من ستة قرون من اكتشافات ابن خلدون هاتيك ، وبهذا المجال الهام يقول ابن خلدون :

« لابد من تمصير الامصار واختطاط المدن من الدولة والملك » الى جانب قوله : « ان الملك يدعو الى نزول الامصار ... والاستيلاء عليها[٣٤] » .

وفي معرض كلامه عن المستوطنات البشرية نجد انه يورد في اكثر من مجال مصطلحات مثل المصانع والمنازل والدور والقصور ، ومنها مايقصد به منشآت عامة مثل المصانع التي يقصد بها ابنية عامة تنشأ من قبل الدولة او

(*) المقدمة ص ٣٤٧ .

٣٤ـ المقدمة ص ٣٤٣ ـ ٣٤٤

هيئات عامة . وكذلك الحال بالنسبة للقصور احيانا مقارنة مع المنازل والدور التي يكاد ان يحتكرها القطاع الخاص وقتذاك . وينسحب ذلك على الوحدات التخطيطية الاخرى في المدينة . فهناك مساجد تنشأ من قبل الدولة واخرى من قبل الافراد الى غير ذلك .

٧ ـ التخطيط ومستلزماته القانونية Planning, Codes and Ordinances

وبخصوص التخطيط وضماناته القانونية نجد ان لابن خلدون السبق المعلى اذ ان كل ماقد اورده وفي اكثر من عشرين فصلا من الباب الرابع لمقدمته انما جاء لعلاج قضايا التخطيط بابعاده البشرية والمكانية والزمانية مما يشكل بيئة الانسان التي تحكي قصة علاقته بالارض Land-Man Theme ، وان كل معالجاتنا السابقة انما جاءت أدلة علىأهمية التخطيط بالنسبة لابن خلدون

فعلى البعد المكاني نرى ابن خلدون قد رسم سلما للمعالجات التخطيطية للمكان مبتدئا بالتخطيط القومي الذي يغطي ارض الدولة كلها واشار الى ذلك في اكثر من مكان متدرجا من هذا المستوى الفوقي الشامل الى مرحلة التخطيط الاقليمي الذي بدأت اهمية فهمه واستيعابه تضطرد حاليا ومن ثم يأخذ بالتخطيط الى مستواه المحلي[٣٥] . وبالنسبة للتخطيط المحلي نرى ابن خلدون قد غطى الموضوع بنوع من الافاضة وذلك أينما تكلم عنالمستوطنات البشرية . حيث انه وعند اي من معالجاته على مستوى المدينة او الريف او حتى البدو انما يكون مخططا على مستوى محليا .

٣٥ـ N. Al. Jalili, National Development Needs for Comprehensive Regional Planning in Iraq, Paper Presented to U.N. Seminar of Urban Planning Buchar est, 1969 (Mimeographed); Erich Egner Regional Planning and the Problems of Agglomeration, Geog. Rev. Calcutta, 1962, 314 pp. 1—12.

انه بمعالجة مراتب المدن (هايراركيتها) التي تطرقنا اليها سابقا انما يكون قد استوعب الاقليم بوحداته المكونة وحسب اهمية كل منها فها هو يقول :

« ان تفاصيل الامصار والمدن في كثرة الرزق لاهلها ونفاق الاسواق انما هو في تفاضل عمرانها في الكثرة والقلة[٣٦] » .

ان تشخيص ابن خلدون لظاهرة اهمال المراكز والاجزاء المتطرفة من البلاد او الاقليم انما دفع ــ وكما هو جار الان ــ الى اعتماد التخطيط الاقليمي بهدف الوصول الى نوع من التوازن في النمو وبالتالي للقضاء على عوامل الطرد من بعض الاجزاء اوعلى الاقل الحد منها وتخفيف شدة الجذب لدى المستوطنات المركزية لما فيه صالح البلاد ككل (أي على مستوى قومي) .

وعند انتقال ابن خلدون للشق الزماني من التخطيط نراه قد ميز وبشكل واضح الرؤيا بين المديين القريب والبعيد . فبالنسبة للتخطيط قريب المدى نراه يطرح مشاكل المستوطنات والبيئات البشرية داعيا لحلها انيا ، واما بالنسبة للتخطيط بعيد المدى فقد اكده عندما أشار الى ان المنجزات الكبيرة من قبل الانسان لابد وان تتظافر عليها جهود الاجيال وهولاشك يستغرق زمنا طويلا. وان ذلك يذكرنا بخططنا التنموية بعيدة المدى التي تتجاوز البعد الاني في الاقتصار على الحلول الانية الى وضع حلول لمشاكل المستقبل مما يستوعب واجباتنا تجاه ارضنا ومستوطناتنا واجيالنا مستقبلا وهي رؤيا صحية وضعت عليها في وقتنا المعاصر الدراسات العديدة وعقدت من اجلها الندوات والمؤتمرات مما يدل على البعد التخطيطي الذي اضافت فيه مدرسة ابن خلدون ، وبهذا المجال يستطرد ابن خلدون:

٣٦ــ المقدمة ص ٣٦٠.

« الهياكل العظيمة جدا لاتستقل ببنائها الدولة الواحدة ، والسبب في ذلك ماذكرناه من حاجة البناء الى التعاون ومضاعفة القدر البشرية ، وقد تكون المباني في عظمتها اكثر مفردة او مضاعفة بالهندام • كما قلناه فيحتاج الى معاودة قدر اخرى مثلها في ازمنة متعاقبة الى ان تنمو فيبتدي الاول منهم بالبناء ويعقبه الثاني والثالث الخ ••••[٣٧] » •

ولقد كان هدف التخطيط ـ كما هو عليه الان ـ بمستوياته وانواعه هو الانسان وتطوير اقتصاده وضمان صحته ونقاء بيئته وحمايته من اي نوع من الاذى اثناء مساكنته لمستوطنته ومن هذا المنطلق نرى ابن خلدون يقول :

« والحكم على اهل المباني المتداعية للسقوط بهدمها وازالة مايتوقع من ضررها على السابلة[٣٨] » •

ان ذلك لايخرج عن نوع من التعليمات بخصوص البناء في المستوطنة البشرية وضرورة اتصافه بمواصفات معينة ، مما يدل على ان ابن خلدون قد رسم الطريق للسلطات البلدية والتخطيطية في مئات المدن لكي تصدر تعليماتها وقوانينها المتعلقة بالطرق والبناء ومواصفاته حسب المواقع ومتطلبات البناء حسب الوظيفة (الاستعمال) التي يراد للبناء ان يقدمها • ومن الغريب انه بينما يتكلم عن مثل ذلك قبل ستة قرون تقريبا نرى ان بعض البلديات لم تفكر بذلك الا قبل فترة وجيزة وفي اكثر من بلد مما يدل وبدون أية ريبة ان المدرسة التخطيطية العربية التي ارادها ابن خلدون قد عالجت قضايا التخطيط بشكل شامل ومتكامل • لقد ترجمت معالجات ابن خلدون في بعض المدن الى تعيين مراقبين على البناء والشوارع وكذلك لمراقبة كيفية سير الوظائف المتبادلة ومراقبة الاستغلال باشكاله المختلفة • اذ قد اهتم ابن خلدون بضمان العدالة في كل مظاهر الحياة المدينية مما لانراه في كثير من المدن حيث يقول :

٣٧ـ المقدمة ص ٣٤٦

٣٨ـ المقدمة ص ٢٢٥

« ويحمل (اي الحسبة) الناس على المصالح العامة في المدينة مثل المنع من المضايقة في الطرقات ومنع الحمالين واهل السفن من الاكثار من الحمل »، ويستمر الى ان يقول : « بل فيما يتعلق بالغش والتدليس في المعايش وغيرها في المكاييل والموازين وله ايضا حمل المماطلين على الانصاف[٣٩] » .

وبذلك فيقرب ابن خلدون من الكثير مما اوردته الامم المتحـــدة في ميثاق انشائها او بالعكس تقترب الامم المتحدة مما قاله ابن خلدون . فكم من متسوق غشه البائع ، وكم من حمال قد تعطلت فقراته داخل المدن وكم من بناء قد تهدم واضر بالناس والبيئة ؟ فكأن ابن خلدون قد رسم كل ما يضمن للانسان سويته وحقوقه في التعامل داخل المستوطنات المدينية وهو ما تسعى اليه اكثر من سلطة في مدننا المعاصرة ، واكثر من ذلك فقد تطرق ابن خلدون الى نظام الملكية ومشاكل الارث داخل المستوطنات البشرية وتجارة العقار ومستندات البناء وملكية الارض مما تعاني منه المدن المختلفة وكأنه اراد بذلك ان تسير المدينة على نظام معين يحدده المجتمع المتعايش معها من خلال معاييره الحضارية في المراحل التي يجتازها . فبهذا الخصوص يقول ابن خلدون :

ومن فروعه ايضا المعاملات ، وهو تصريف الحساب في معاملات المدن في البياعات والمساحات والزكوات وسائر ما يعرض فيه العدد من المعاملات يصرف في صناعتنا ذلك الحساب في المجهول والمعلوم والكسر والصحيح والجذور وغيرها الخ .. وهي صناعة حسابية في تصحيح السهام لذوي القروض في الوراثات اذا تعددت وهلك بعض الوارثين وانكســـرت مهامه على ورثتـــه الخ ...[٤٠] » .

٨ ــ المدينة كائن حي City as an Organ

لايمكن ان تتحقق النظرة الصائبة والاستيعاب السليم لماهية المستوطنة البشرية المدينية الا باعتبارها كائنا حيا تعمل فيه متغيراته الداخلية والخارجية

٣٩ــ المقدمة ص ٢٢٥

٤٠ــ د/سابا جورج شبر ، المصدر نفسه ص ٧٤ .

مما يخضعها الى التغير والنمو • وقد يكون هذا التغير او النمو سـلبا او ايجابا • وهذا ما اكتشفه ابن خلدون ، مما جعله يبز العديد من مفكري عصره في هذه النظرة التي تستطيع ان تفسر الكثير من الظواهر التي يتعذر تفسيرها لدى من ينظر الى المدينة على انها مجرد شوارع وابنية صفتهما الجمود • وعلى اساس نظرة ابن خلدون وكما اخذت تؤمن بها احدث نظريات المدن فان لكل مستوطنة بشرية مدينية فعل ورد فعل لكل مايحدث داخل رقعتها المبنية او داخل حدود اقليمها • فشق شارع في منطقة او اقامة حديقة عامة في أخرى أو ازالة سوق من مكان ثالث الخ •• يؤثر ليس على المنطقة المجاورة لاي من هذه الوحدات الثلاث فقط ، انما يؤثر على المدينة ككل لا بل على العلاقة بينها وبين اقليمها ايضا • ان هذا المفهوم هو مفهوم الشمولية في معالجة البيئات الاستيطانية المدينية والذي من خلاله وبواسطته يمكن ان تطور تلك المدن وضمن الاطار الاقليمي والقومي بشكل صحي ومعقول • يوثر تطور البعد الوظيفي والمكاني على مستوى الدولة بالمدينة كثيرا كما يؤمن ابن خلدون ، وهو ماحدث ويحدث عبر تاريخ الاستيطان البشري المديني• ان طول عمر الدولة يعني استقرارها ـ على الاغلب ـ وبالتالي تطورها اجتماعيا واقتصاديا مما ينعكس على مراكز استيطانها وخاصة المدينية منها • فالازدهار الوظيفي ـ اجتماعي واقتصادي ينعكس على البنية المورفولوجية للمدينة وكما لاحظنا في نقاط سابقة • وهذا الاخير ينعكس على مساحة الرقعة المبنية ، انها علاقة جدلية عضوية بين الوظيفة والشكل ، متلازمتان طالما ان هناك سبب لديمومة واستمرار المدينة ، بالرغم من امكانية ـ وهو الغالب ـ حدوث تفاوت زماني Time Lag بين سرعة التبدل الوظيفي والتبدل المورفولوجي •(٤١)

---

٤١ M.R.G. Conzen, the Plan Analysis of an English City Centre Printed in Proceedings of I.G. U. Symposium in Urban Geography Lund, ed by: K. Norborg Lund 1962.

وعن اهمية عامل الادارة واستقرار الدولة فيقول ابن خلدون :

«ان الامصار التي تكون كراسي للملك تخرب بخراب الدولة وانقراضها»

وقد كان هذا عنوان لاحد فصول الباب الرابع من مقدمة ابن خلدون والذي بدأه قائلا :

« الدولة اذا اختلت وانتقضت فان المصر الذ ي يكون كرسيا لسلطانها ينتقض عمرانه ،وربما ينتهي انتقاضه الى الخراب[٤٢] » .

وبذلك فقد وعي ان المدينة هي كائن حي يولد وينمو ويزدهر وقد يستمر في ذلك اويتدهور ، بعد مرحلة معينة فيضمحل بل قد يموت .

٩ ــ العلاقةبين المدينة والاقليم City and Region

وبعد ان عالج المستوطنة البشرية المدينية من اهم نواحيها تاريخا ووظيفة وتخطيطا ، ولاستكمال هذه المعالجة التي كونت بالنهاية مدرسة تخطيطية قائمة بذاتها ، مدرسة ذات اصالة عربية واضحة ، نرى ابن خلدون يلتفت الى ناحية هامة جدا وهي دراسة المدينة على انها جزء او نواة لاقليم ، وبغض النظر عن سعة ونوع الاقليم هذا . لقد ربط بذلك وبشكل منطقي بين تخطيط المدن والتخطيط الاقليمي الذي بدأت تأخذ به غالبية اقطار العالم ، وتطور اطاره النظري مؤسسات ومعاهد اكاديمية مختلفة . لقد ميز ابن خلدون بين انواع من الاقاليم، فهناك الاقليم الضيق القريب وهناك الاقليم الواسع الممتد لمسافات أبعد[٤٣] . وها هو يقول في هذا المجال :

« ومما يراعى من المرافق في المدن طيب المراعي لسائمتهم ، اذ صاحب كل قرار لابد له من دوجن الحيوان للأنتاج والضرع والركوب ولابد لها من المرعى .

٤٢ــ المقدمة ص ٣٧٤

٤٣ــ A. Smailes, The Geography of Towns, London 1960. p. 137

فاذا كان قريبا طيبا كان ذلك ارفق بحالهم لما يعانون من المشقة في بعده . ومما يراعى ايضا المزارع . فان الزروع هي الاقوات ، فاذا كانت مزارع البلد بالقرب منها كان ذلك اسهل في اتخاذه واقرب في تحصيله، ومن ذلك الشجر للحطب والبناء . فان الحطب مما تعم البلوى في اتخاذه لوقود النيران للاصطلاء والطبخ والخشب ايضا ضروري لسقفهم وكثير مما يستعمل فيه الخشب من ضرورياتهم[٤٤] » .

كما وقد ربط ابن خلدون ــ وكما رأينا عند الكلام عن الجانب المورفولوجي ــ في مدرسته بين الكفاءة الوظيفية للمستوطنة البشرية وبين سعة اقليمها . وبذلك فقد نجح في أن يؤطر البعد المساحي على اساس وظيفي مما يغطي اية مساحة قد تكون مدينة او اقل وتتسع لتغطي اقليما او حتى لتشمل البلاد كلها، مماله اثر في التخطيط لموازنة النمو في انحاء البلاد .

وبالنسبة لابن خلدون ــ وهو ماقد جاءت به احدث الدراسات المدينية والاقليمية ولكن متأخرة عنه ــ فان من اولى مهمات الاقليم هو انعاش المدينة وظيفياً ومدها بعناصر الحياة والازدهار ، بل ضخها بعوامل الديمومة لتؤدي ماقد اوجدت من اجله . ان هذه الرؤيا تدفع الى ضرورة تحقيق العلاقة الايجابية المتبادلة بين المستوطنة البشرية المدينية واقليمها لما في ذلك من صالح الطرفين وسكانهما .وبهذا يقول ابن خلدون :

« واما بعد انقراض الدولة المشيدة للمدينة ، فاما ان يكون لضواحي تلك المدينة وما قاربها من الجبال والبسائط بادية ، يمدها بالعمران دائما ، فيكون ذلك حافظا لوجودها ، ويستمر عمرها بعد الدولة ، كما تراه بفاس وبجاية من المغرب وبعراق العجم من المشرق الموجود لها العمران من الجبال[٤٥] » .

٤٤ــ المقدمة ص ٣٤٨

٤٥ــ المقدمة ص ٣٤٣

واكثر من ذلك فقد رأى ابن خلدون ان العلائق بين المدينة واقليمها تأخذ طابع الهجرة بينهما حيث يسترسل قائلاً :

« لان اهل البداوة اذا انتهت احوالهم الى غاياتها من الرقة والكسب ، تدعو الى الدعة والسكون الذي في طبيعة البشر ، فينزلون المدن والامصار ويتأهلون[٤٦] » .

وبذلك فقد اوضح ابن خلدون كيف ان الاقليم يكون في حالات عدة عامل تحجيم للمدن سكانيا ـ من خلال الهجرة مثلا ـ وبالتالي عمرانا مما ينعكس على مورفولوجية المدينة . وفي حالة صغر أو عدم استطاعة الاقليم بمد المركز الحضري بعناصر الحياة الاقتصادية والبشرية أو بفشله في تنشيط أو خلق وظائف جديدة فيه فسوف تزول مقومات الازدهار والتوسع العمراني مما يؤدي بدوره الى اضمحلال المستوطنة او حتى زوالها . وهنا يذكر ابن خلدون

« واما اذا لم تكن لتلك المدينة المؤسسة مادة تفيدها العمران يترادف الساكن من بدوها فيكون انقراض الدولة خرقا لسياجها ، فيزول حفظها ويتناقص عمرانها شيئا فشيئا ، الى ان يذعر ساكنها ، وتخرب ، كما وقع بمصر وبغداد والكوفة بالمشرق ، والقيروان والمهدية وقلعة بني حماد بالمغرب وامثالها[٤٧] » .

وهكذا فقد نجح ابن خلدون في ان يضع أسس مدرسة رائدة في مجال التخطيط المديني والاقليمي ، استلهمت منها العديد من الحضارات لتحل مشاكل مستوطناتها .

٤٦ـ المقدمة ص ٣٤٣

٤٧ـ المقدمة ص٣٤٣

اسس العرب مدرسة لم يتوصل الى مثلها العالم الحديث الا بعد مايقرب من ستة قرون مضت على انجازات ابن خلدون • ان من يتصفح اي كتاب جامعي (اكاديمي) مقرر في مجال تخطيط المدن والتخطيط الاقليمي سيجد ان غالبية فصوله تتمحور حول مباديء ابن خلدون • وذات الامر بالنسبة لاغلب الكتب التي تعني بالتطبيق مما تهتم به السلطات التخطيطية والبلدية ، وعلى مختلف المستويات مما يدفعنا الى ان نعيد النظر في تقويم مناهجنا الاكاديمية وخطواتنا العملية على انها عربية قبل ان تكون مستوردة او غربية ، وفي اكثر من حال كما رأينا عبر هذه الدراسة •

لقد قدم العرب من خلال المدرسة التخطيطية الخلدونية مجال الهام ودربا مضاء يمكن الرجوع اليه لحل المشاكل الحضرية والاقليمية التي ـ لاشك ـ انها في اضطراد مع هوس التحضر السريع والهائل ، وفي غالبية بقاع دنيانا العربية • خاصة وان هذه المدرسة قد استوعبت تفاعل متغيرات الانسان والمكان والزمان بصورة تعكس جدلية هذه العلاقة التي قد تتجه لما فيه خير او شر حضارة بني الانسان •